اسم العمل: أكان لابدّ؟

اسم المؤلف: رحمة حمدي.

فئة العمل: القصة القصيرة.

سنة النشر: 2024 م.

ملحوظة

أي اقتباس أو تقليد أو نشر دون موافقة كتابية يعرّض فاعله للمساءلة القانونية.

أكان لابدّ؟

الإهداء:

إلى المرضى النفسيّين والذين يظنون أنهم مرضى نفسيين، وضحايا المرضى النفسيين كذلك، أهديكم هذه القصة وقلبي.

«كلمة الكاتبة»

إن الأمراض النفسية الشيء الوحيد الذي لا يجب أن تتجاهله نهائيًا، حيث أنها كالقاتل المتربص، الذي يجيء للمرء في أضعف حالاته وأوهنها، ليقوم بهدم أوصاله وعقله وقلبه، كما أنها كالعبء الثقيل على المرء، فتحمله عبءً إضافة إلىٰ حمله الأصلي، فتزيد من حدة الأعراض وشدة الوهن، كما أن لها تأثير فتّاك للحياة الاجتماعية والاقتصادية للفرد، لذلك لا يجب التهاون في ذلك، وعليك عزيزي استشارة

الطبيب على وجه السرعة، وإن لم تكن مصابًا بإحدىٰ الأمراض الدارجة تحت قائمة النفسية والعصبية، فعلىٰ الأقل، قد ولج الاطمئنان باب قلبك، والجدير بالذكر أن لا تلتفت إلىٰ ما يقوله الناس عنك، حتىٰ وإن كنت بطلًا للأولمبياد لأعوام متتالية، سينعونك بأشياء لا تتحمل سماعها، فاصبر واصطبر واحتسب جزاء ما أنت فيه عند الله ﷻ.

بينما هؤلاء الذين يظنون أنهم مصابون بإحدى الأمراض، جراء عزلتهم الطويلة، وبكائهم أو حتى شعورهم بالحزن لوقت ممتد قليلًا، أقول

لهم أنهم لا يعرفون جليًا المرض النفسي وعواقبه، لا تدعّون بأنفسكم إلى الهلاك بما تتفوه به أفواهكم، كونوا عقلانيين، فالحزن ما هو إلا نتاج تراكمات حياتية معتادة، كما أنه شعور إنسانيّ كالحبّ والفرح واللطف. وأخيرًا «أتمنى لكم السلامة والسعادة.»

البداية «المنشأ الوحيد»

ـ أعدكِ بأن لا يعرف لنا الفراقُ سبيلًا.

ـ وماذا إن خُنت العهد؟

ـ المحبّ لا يخون.

ـ وإن خان؟

ـ لستُ أدري بالمحبّ عمومًا، ولكني على يقين أن قلبي أشرف ـبوجودكـ من أن يخونك.

كانت كلماته الحسناء تتردد على ذهن 'مرسال' المنشغل من فرط التفكير، تارة يبوح بالخداع، وأطوارًا يهجوها الهجر، وماذا تنتظر من ذاتها، تلك التي كانت مأوى لمشاعر الفِراق والتخلّي المعني، عن شغفها بفتى أحلامها الوردية، تريده طويلًا بعض الشيء، يكبرها سنًّا ويغمر قلبه الحنان، عاهدت الحبّ والصدق ببصيص عينيه، والشغف والأمل بكلماته الحانية، كانت آيلة للسقوط في مهجع قلبه، قبل أن يتقدم لطلب إلقاء العهد المعلق على عاتقها، كان ذلك منذ عامّ واحد قبل أن يُغلق عليهما بابَ منزلٍ خاصّ بهما، مع غلقه.. بدأت حياة مفعّمة بالحبّ وملآنة بالحركة والأكشن!

وعلى ذِكر الخطبة، عادت بذاكرتها إلى أولّ لقاء، حِينما كان يجلس رِفقة صديقٍ له على طاولة الشطرنج التي التفّا حولها والحماس على وشك القفز من أعينهما الواسعتين.

كانت تركض هي بكلّ ما أوتيت من قوّة من ذراع باسق يكاد يقبض على حجابها المتطاير خلفها، الذعر على معالم وجهها منشور، وبلمح البصر كان يقفز على الأرضية بعدما كان متربعًا بكلّ أريحية على مقعده الوثير ليتسنى له مزاولة الشطرنج بمزاج عالٍ، جعل ينادي في قدميه الإسراع كي يلحق بهذا المتعدي الجبّار، ليتوقف الاثنان والذُّعر على محياهما يرتسم باحترافية لصدقه النابع من قلبيهما الهائج، كانت عبارة عن جسد هامد على عرض الطريق، كأن جبلًا قد رسى عليه، فألصقه بأرض جافية، كانت هذه حالتها بعدما صدمتها عربة نقل ضخمة،

اندفع الاثنان والرّعب يسبقهما إليها، ليتفحصا أي جروح أو كسور اعتلت جسدها النحيف، وبنيتها الضعيفة جدًا، تيقّن المتعدي من انتقال الرّوح إلىٰ بارئها، بينما عزم المنقِذ علىٰ ألا يفقد الثّقة بوجه الكريم ﷻ، وأن يسابق الزمن، بعدما رأىٰ منها جدوىٰ للحديث، وتعلقًا بالحياة، كانت تهتف بكلمات عبثية غير مفهومة، كأنها تتمتم تعاويذ لتحضير الجان مثلًا، ولكن ما خفي كان أعظم بكلّ تأكيد.

أدراج الرياح ذهبت محاولات المتعدي في أخذ جسد الهاوية أرضًا والشاخصة ببصرها جوف السماء، حيث كان المنقِذ يدفعه بعيدًا عنها كلما حاول أن يتقدم الخطىٰ نحوها، قبل أن يصل صبره إلىٰ ذروته، ليقوم بلكمة قوية تنم عن غضبٍ كامن داخل قلب تعرّض للظلم دون

القدرة الحتمية للتصدي، فكيف يطغىٰ المرء أمام أبيه ليقتصّ الحقّ منه؟ خرّ المتعدي أرضًا كأثر شافٍ لضربته الغاضبة، مِن ثَم همّ الأخر بالركض نحو الجسد الهاوي، اقترب في خزي، كأنه يحمّل ذاته أعسان عدم إلحاقه بها، يا ترىٰ هل كان هو السبب الحقيقي؟ هل كان يتوجب عليه فعل شيئًا أكثر مما فعل ليتسنىٰ له فرصة نجاتها؟ طرح بأفكاره الغليظة عرض الحائط، وهو يجذب هاتفه من جيب بنطاله في عجلة، كأنه تذكر الآن فقط ما يستوجب فعله في مثل هذه الحالة الشنيعة، ضرب عدة أرقام في توجس، كأنما اعتاد قلبه القلق، من ثَم شرع في الإنصات إلىٰ المتحدث علىٰ الجانب الأخر:

ـ مرحبًا، كيف يمكنني مساعدتك؟

ـ حادثة بشعة في الشارع الرئيسي للمدينة، أرجو الحضور في الحال.

كان ثمّة خَوف يسيطر على نبرته، وبعض من الهذيان يحتلّ عقله، قبل أن يحاول وضع لوحًا خشبيًّا جلبه من أعلى العربة، تحت الجسد المصطدم ليتمكن من إبعاده عن المكان المشؤوم، ثم وبعد فترة وجيزة كانت سيارة الإسعاف تقف على بُعد أمتار من العربة الصادمة، ترجّل رجال الإسعاف بسرعة معهودة وواضحة للعيان، وتوجه بعضهم إلى الجسد الذي لوهلة ظنّوا أن معظمه أصبح جزءً لا يتجزأ من الأرض المسطحة، كان الجزء هو ذراعها الأيسر الذي تشوّه بالكامل.

في حين صعد الأخرون إلىٰ سائق العربة، الذي كان في حالة يرثىٰ لأهله عليها، كان غارقًا في دمه، كأن الدمّ قد شحن سائر جسده السمين، لينفجر محررًا نفسه من كبت جسديّ مقزز عند أولّ فرصة كأنه قاتل يتربص.

بينما المنقِذ «د. سام» كان يلهو ويلعب إذ بضربة عارمة بطول ظهره المنكمش أو الصغير ربما، تهوي عليه ممزوجة بشرر مرعب من عينين ألفهما منذ أن كان في المهد رضيعًا، إنه أبوه الذي يبغض لُقياه.

طفا الأخر علىٰ سطح محيط ذكرياته البائسة، بسؤال خرج من فم المسعِف:

ـ ألن تأتِ معنا؟

نهض من جلسته المعتادة 'الارتكاز' تلك الجلسة التي تربّى عليها مع بعض السباب والركلات.

ثم نطق بتردد ناجم عن تزعزع ثقته:

ـ هل أستطيع أن أسأل سؤالًا؟

ـ سل ما بدا لك.

«ردّ الأخر في حزم.»

بينما أردف «د. سام» بخوف يعتليه:

ـ هل هي على قيد الحياة؟

ـ لا تقلق، ما زالت معلقة بريشة النجاة.

ردّ المسعِف رفيقه بنبرة ساخرة:

ـ ربما تتقاذفها رياح الحياة، وتودي بها إلىٰ منتهاها!

ضحك الاثنان، بينما استشاط «د. سام» غضبًا.

صعد المنقذ مع المسعفين، ليتوجهوا جميعًا إلىٰ المستشفىٰ القريب، أصوات تضرب طبول الآذان بإحضار السرير

المتحرك على وجه السرعة، ثم هبوب رياح القلق تزامنًا مع إغماض المصابة عينيها باستسلام، ازدادت لدى «د. سام» حِدة القلق وهو يطالعها بتفحص، قبل أن تدخل إلى غرفة يدعو خارجوها بطلوع مريضها سالمًا يستنشق هواء الحياة.

مرّت سويعات قليلة، بينما يهتف قلب «د. سام» بالدعاء، ثم تقع عينيه على المتعدي الجبار وهو يشق الطريق إلى الغرفة، يا له من وقح صفيق!

كانت عينيه تغزوهما الحسرة والألم، كأن يشوبها بعض الندم، توقف «د. سام» قليلًا مستنكرًا ما يراه، أهذا هو نفس الرّجل المتعدي؟ الذي كان متجهمَ الوجه، كأن بينه وبينها عداوة، اقترب منه بتوجس يقول له بخفوت:

ـ كيف حالك المتبدلة بين غضبٍ ناريّ وندمٍ مسيطر؟

نطق الأخر بوجوم نزل عليه:

ـ لا يعقب الغضب الجارف سوىٰ الندم الشديد.

ران الصمت للحظات قبل أن يشقق بأوصال صوته:

ـ ما علاقتك بها؟

ـ لا علاقة.

تعجب الأخر وضمّ ما بين حاجبيه في بلاهة، ثم تساءل عن سبب ما حدث، لينبس الأخر بخزي:

ـ يجب ألا تُبنىٰ العلاقات مع أشخاص غير أسوياء؛ لأنهم يستهلكون مشاعرَ الأصحاء نفسيًا، إما أن ينتهي بهم الحال إلىٰ مثل ما وصلت إليه «مرسال»، أو يكون القبر هو مقصدهم الوحيد.

تساءل «د. سام» بتعجب يشوبه بعض السخرية:

ـ ولذلك تريد إنهاء علاقتك بها، توافقًا مع ما قلت.

أومأ الآخر في حسرة، فنطق «د. سام» متابعًا:

ـ ولمَ أنت على يقين بشفاء مرسال وأن القبر لن يكون مقصدها هذه المرة؟

ـ لأنها عاهدتني أن تعالجني قبل أن تموت، مرسال لا تنقض العهد.

ران الصمت مرة أخرى، ليحطمّه هذه المرة صوت الطبيب الخارج من الغرفة المجاورة ومعالم وجهه لا تنذر بالخير.

ركض الرجل المتعدي إليه في رعب، يسأله بعينيه قبل فيه:

ـ ما الحال التي هي عليها الآن أيها الطبيب؟

ـ العزاء لكما.

قبل أن يردف الأخر موضحًا أنهما لا يقصدان هذه المريضة، وإنما مَن ترقد بالغرفة المجاورة لها، تملكت الصدمة من الرجل ليخرّ من فوره صريعًا.

حاول الطبيب إنقاذه على وجه السرعة ولكن عرفت الروح مقصدها، وتمنى الجسد أن يأوى إلى قبره ـ محلّه الوحيد.

حينها نطق «د. سام» في سخرية:

ـ يجب ألا يحزن الغير أسوياء على نتاج أفعالهم الوخيمة، لأن لا تلذذ لهم إلا بها، فالكلّ مقصده الوحيد القبر، بعد الخسارة الحاتمة في معركة الحياة.

ثم عاد إلىٰ ذكرياته البائسة، والتي لا تحوي إلا عذابات أبيه المعادة ولكن بشكل أو بأخر، فوالده كان يحبذ الانتقال بين ألوان العذاب، حتى لا يحرمه شيء منه.

ثم علا إلىٰ الأفق بعد الغرق إلىٰ سابع أرض، بصوت رخيم من الطبيب الجراح:

ـ بشكل أو بأخر نجحت العملية، ما هي إلا أربعة وعشرون ساعة، لنتأكد من استقرار حالتها.

ابتسم «د. سام» ابتسامة واسعة، ظهرت علىٰ إثرها حفرتان جميلتان علىٰ وجنتيه.

ثم همّ بالذهاب إلىٰ مطعم مجاور، ليتسنىٰ له تناول الغداء، ثم ما هي إلا دقائق، اقترب فيها الضابط منه، طرقات بسيطة بقبضة يده علىٰ الطاولة، جعلته ينتبه علىٰ وجه

السرعة، فهو لم يكن قد غرق بشكل كامل في تفاصيل ذكرياته الممقوتة بعد.

ـ هل شاهدت الحادث؟

ـ أجل.

ـ قص عليّ.

قصّ الأخر عليه ولكن كما رأى ليس كما ترجم عقله ما حدث، ليبتسم لأن المسعفين لم يسخرا منه، ولكن ما ظنّ لم يكن إلا نتاج إهانات وسخرية علّقت في ذاكرته منذ ماضٍ طويل اقتصّ منه الحبّ والعطاء.

سجّل الضابط إفادته، ثم همّ بالانصراف لموقع الحادث، ليستطيع التأكد مما قُصّ عليه من قبل «د. سام».

ثم وبعد مرور أربعة وعشرون ساعة بالتمام والكمال، كان «د. سام» يستأذن الطبيب المعالج ليتسنى له رؤية مرسال هذه التي لا تنقض العهد.

تغنجت أساريره بعدما حرّك الأخر رأسه موافقًا، فاستدار متوجهًا إلى الغرفة.

ـ كيف حالك الآن؟

ـ بخير.

كان ينطق بحماس وشغف، بينما تجيب هي بوهن.

ـ ما الذي أوصلك لهذه الحالة؟

ـ زوجي، إنه مريض نفسيّ، تأتيه نوبة عدوانية، يظنني حينها أودّ أذيته، فيأخذ سريعًا وضعية الدفاع.

سكتت مليًّا تبتلع غصة بحلقها، قبل أن تستطرد:

ـ بالمهاجمة.

ـ ولِمَ أنتِ عليه صابرة؟

ـ إنه الحبّ.

ـ ادفعي هذا الحبّ عُرض البحر، لم أظنك ساذجة لتلك الدرجة! هل ترتاحين عندما تموتين جراء هذا التعلق الوهمي، في النهاية يكون قبرك مقصدك الوحيد.

ـ أراك تتحدث مثله!

ـ لا، قال لي ما أقول، قبل أن يروح إلىٰ مقصده الوحيد.

ـ ماذا؟ هل مات؟ لا أصدق، أنت تكذب حتمًا.

ـ ماذا تقولين؟ أنا لا أكذب، تالله توفىٰ إثر صدمة وفاتك.

ـ هل أنا ميتة؟

ـ أنت أدرىٰ!

ـ كيف؟ ألا تراني؟

ـ أراكِ!

ـ إذن؟

ـ أنتِ حية.

ـ ولمَ لا نكون أنا وأنتَ في عداد الموتى؟

ـ لا يمكن؛ لأن وصيتي أن أقبَر في قبر وحيد مخصّص لي.

ـ إذًا، نحن أحياء.

ـ هذا الواضح، وزوجك ميت.

ـ هذا ما قلته أنت.

ـ مات، وخان العهد، فارقك قبل أن يمكنّكِ من إلقاء وعدك المعّلق على عاتقك بتنفيذه.

أجابت بخزي وصوت واجم يشوبه الألم:

ـ نعم، إنه خائن.

ضربت على رأسها في محاولة منها لتذكر ما حدث بعد هذا الحوار، أو ربما تذكر الأجزاء القليلة الباقية منه، ولكن هباءً راحت محاولاتها، قبل أن يتسع ثغرها بابتسامة مشرقة إثر تذكرها لحوار أخر جمعها معه، بعد مرور خمسة شهور تقريباً على فقدها لعزيز قلبها، كانت تبتاع حينها بعض الحاجيات، لتلتفت فجأة إثر نداء باسمها، ولم يكن سوى «د. سام»، ذلك الطبيب المختص بترطيب الروح ومعالجة الندوب الضامرة، طالعته باستنكار لوجوده في هذا المكان، ليقطع هو بصوته الرخيم أحبال أفكارها وهو يطالعها بثقة:

ـ اقبليني وأعدكِ بأن لا يعرف لنا الفراقُ سبيلًا.

ـ هذا ما قاله زوجي قبل أن يصبح!

ـ لكنني أعدك بشرف وعزة.

ـ وماذا إن خُنت العهد؟

ـ المحبّ لا يخون.

ـ وإن خان؟

ـ لستُ أدري بالمحبّ عمومًا، ولكني على يقين أن قلبي أشرف ـبوجودكـ من أن يخونك.

راجعت حينها دفتر أمانيها، لتجد وصفًا لفتى أحلامها الوهميّ يتناسب بشكل ما معه، حدّثت نفسها بأنه الذي كانت تدعو به ليالٍ باسقات، قبل أن ترمي عليه بكلمة انتشلته من جُبّ التفكير في «ماذا يحدث إذا حدث هذا

وذاك»، وجعلته يفكر في شيء واحد فقط «ماذا يحدث إذا قبلت الزواج؟»

استيقظت من أفكارها، وهو يدير مفتاحه بباب الشقة، لتطالعه يقف شامخًا ينظر إليها بإعجاب!

نطق بحبّ وهيام وبصيص عينيه يزيد وهو يتقدم بخطوات حانية، كأنه عاشق ولهان:

ـ مرحبًا بك يا وسام؟!

نطقت بعد زفرة طويلة:

ـ أدعىٰ مرسال يا سام.

«واحدٌ أخرق يراها عدوته، وآخر "خائن"
حسبها حبيبته! وهي لكليهما زوجة بمثابة
طبيب ظاهريّ، مكنونها مريضٌ نفسيّ!»

النهاية «المقصد الوحيد!»